البيان المحمدي

البيان المحمدي

دكتور مصطفى الشكعة

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، واهب النعم، وبارىء النسم، وخالق السموات والأرضين، مالك يوم الدين، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد إمام المرسلين وخاتم النبيين، الذى حباه ربه بالتكريم، وحيَّاه فى القرآن الكريم بالخير العميم، فى قوله ـ عز وجل ـ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وبعد:

فإن السيرة النبوية حافلة بأسباب الهداية، مسددة بقوافل من النور، يجتنى الناس منها عماد الإيمان، ويثبّتون قواعد الإسلام، فينعمون بسعادة الدنيا، ويحققون النجاة فى الآخرة.

ومحمد ﷺ كان مدده القرآن الكريم، الذى أعجز الأولين والآخرين، وأداته البيان الناصع، والبلاغة الآسرة، فى مجتمع عرف بالفصاحة، وتزيّن بالشعر، وتجمل بالبيان، فكان محمد ﷺ سيد ذلك المجتمع أدبا وفضلا قبل المبعث، وفصاحة وبيانا وإلهاما بعد نزول الوحى والتكليف بأمانة الدعوة وحمل الرسالة.

كان محمد ﷺ أفصح الفصحاء، وأبين الأبيناء، وكان يعلن ذلك فى قوله الشريف: « **أنا أفصح العرب بَيْدَ أنى من قريش، وربيت فى بنى سعد** »، وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يقول له: يا رسول الله؛ ما رأينا الذى هو أفصح منك. فكان يجيبه بالقول الشريف: « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** ».

لقد فاض بيان محمد ﷺ على العالمين منذ أكرمه الله بالرسالة، وظل هذا الفيض النورانى يواكب الحقب والأزمنة، يستضىء به المسلمون، وينهل منه المهتدون، وإذا

كانت السيرة العطرة فى جوانبها المتعددة قد لقيت اهتماما من العلماء فرووها، ومن المؤرخين فسجلوها، وتسابقت الأجيال فى روايتها، وتلاحقت الجهود فى الحفاظ عليها، فإن جانب البيان المحمدى كان ولايزال فى حاجة إلى مزيد من الجهود لإبانته، وعديد من البحوث لتجليته، هذا مع الاعتراف بفضل السابقين الذين توفروا على جوانب من بيان رسول الله ﷺ فجلّوها، وأطراف من فصاحته فدرسوها ووثقوها.

غير أن الجانب الأكبر من هذه الكنوز النبوية لا يزال محتاجا إلى مزيد من التجلية والجمع والترتيب والتوثيق، وتقديم ذلك كله فى دراسة مستقلة من خلال منهج متماسك وعرض متناسق.

ولقد أكرمنى الله ـ تعالى ـ بأن وفقنى للاضطلاع بهذا العبء الجهيد الذى بدأته منذ بضعة عشر عاما، كانت همتى خلال تلك الأعوام منصرفة إلى شرف معايشة بيان رسول الله ﷺ أجلس إليه، وأتوفر عليه، أسبح فى بركاته، وأغوص فى لجاته، وأقتبس من نفحاته، حتى خرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود. أسأل الله ـ سبحانه ـ أن يتقبله قربة إليه، خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون هذا العمل وسيلة إلى شفاعة رسول الله ﷺ وذريعة إلى السقيا من حوضه رشفات لاأظمأ بعدها أبدا، وسبيلا إلى الاستظلال برايته يوم البعث الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

لقد جاء هذا الكتاب فى عَشرة أبواب، تضمّن كل باب عددا من الفصول، يقل عددها ويكثر طبقا لمادة المقدمة، واستئناسا بالمنهج الذى جعلناه رائدا لهذه الدراسة.

لقد جعلنا عنوان الباب الأول « سمات الرسول وصفاته وشمائله فى الجاهلية والإسلام »، وقد جاء الباب فى فصول أربعة، تناول الفصل الأول جانبا من سيرته ﷺ قبل المبعث وبعده، فذكرنا رضاعته فى بنى سعد، واستسقاء جده عبد المطلب به وهو غلام، واحتكام قريش إليه فى وضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة، وإسهامه فى حلف الفضول الذى ذكره ﷺ بعد المبعث فى قوله: « **لقد شهدت فى دار عبد الله**

ابن جدعان حلفا ما أحبّ أن لى به حمر النعم، لو دعى به فى الإسلام لأجبت » كما ذكرنا زواجه من خديجة رضى الله عنها.

وفى نفس الفصل جاء ذكره ﷺ بعد المبعث ابتداء من نزول الوحى، وموقف كل من خديجة وعمه أبى طالب بجواره، يشدّان من أزره، ويساندانه فى الدعوة إلى رسالة السماء، وقد ورد فى هذا الجزء من هذا الفصل ذكر صفته ﷺ كما أوضحها هند بن أبى هالة، وعلى بن أبى طالب، وأبو هريرة، وحسان، وعائشة، والبراء بن عازب، وغيرهم ممن عنوا بوصف رسول الله ﷺ كما ضم هذا الفصل وصف أبى سفيان بن حرب لرسول الله حين استقدمه قيصر الروم وسأله عن طبيعة رسول الله ودعوته.

وتناول الفصل الثانى « فصاحة رسول الله ﷺ » ونماذج من أقواله فى نطاق الإيجاز والتوسط والإطناب، مع ذكر قوله ﷺ: « **أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش، وربيت فى بنى سعد** » وقوله: « **أوتيت جوامع الكلم** ».

واشتمل الفصل الثالث على « أدب الحوار فى كلام رسول الله » سواء أكان ذلك مع المهاجرين أم الأنصار، ونماذج من حواره مع الوافدين عليه مثل ضمام بن ثعلبة، ووائل بن حجر الحضرمى، والطفيل بن عمرو الدوسى، هذا فضلا عن حواره مع عبد الله بن سلام فى المدينة، ومع سفّانة بنت حاتم الطائى وأخيها عدىّ، واليهودى زيد بن سعنة الذى اعتنق الإسلام بعد حوار جرى بينه وبين الرسول ﷺ وكان زيد هذا واحدا من أحبار اليهود قبل إسلامه.

وتناول الفصل الرابع جانبا من فصاحة رسول الله ﷺ فى نطاق لغات القبائل التى كان يجهلها أهل الحجاز، وذلك فى حواره مع الوافدين عليه، أو العائدين إلى قبائلهم من أمثال طهفة بن زهير النهدى، وجرير بن عبد الله البجلى، وخزيمة بن ثابت السلمى، وقد تبدّت فصاحة الرسول فى حواره معهم بلغاتهم، أو فى الكتب التى زودهم بها، وولاهم من خلالها أمر قبائلهم بعد أن أعلنوا إسلامهم.

وفى الباب الثانى تناولنا بالدراسة كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك من قياصرة وأكاسرة وأقيال وملوك ورؤساء قبائل يدعوهم إلى الإسلام، وقد جاء الباب فى ثلاثة فصول،

تناولنا فى الفصل الأول استعراض رسائله مع الملوك والرؤساء من أهل الكتاب، مثل قيصر وقد حمل الكتاب إليه دحية الكلبى، والمقوقس وقد حمل الكتاب إليه حاطب بن أبى بلتعة، والنجاشى وقد حمل الكتاب إليه عمرو بن أمية الضمرى، وأوضحنا بشىء من التفصيل موقف كل ملك من هؤلاء الملوك من دعوة الرسول، مثل عناية هرقل بالكتاب، ورقة المقوقس فى استقبال حامل الكتاب وحسن رده، كما عرضنا لتحقيق استجابة النجاشى لدعوة رسول الله واعتناقه الإسلام، وتولينا الرد على المستشرقين وبعض تلامذتهم من بنى جلدتنا الذين حاولوا بوسائل مختلفة نفى استجابة النجاشى إلى دعوة الإسلام، وبالتالى نفى اعتناقه للحنيفية السمحة.

وفى الفصل الثانى تناولنا بالدراسة والتحليل كتب رسول الله ﷺ إلى غير أهل الكتاب من أعاجم وعرب، وقد كان كبير الأعاجم ـ كسرى ـ قد أساء استقبال حامل كتاب رسول الله عبد الله بن حذاقة السهمى ومزق الكتاب فى غلظة واستكبار، وتعليق رسول الله ﷺ على الخبر، وماتنبأ به من سقوط ملك كسرى سريعا.

وأما ملوك العرب الذين استجابوا للدعوة فور أن استقبلوا كتب الرسول وحامليها فهم جيفر وعبد ابنا الجلندى مَلِكَا عُمَـان، والمنذر بن سَاوَى ملك البحرين، وأكثم ابن صيفى الذى صحب قومه إلى المدينة للمثول بين يدى رسول الله، ولكنه مات فى الطريق قبل أن يصل ركبه إلى المدينة، وكان قد أعلن إسلامه قبيل وفاته.

بقى اثنان تمردا على دعوة رسول الله ورفضا كتابه إليهما، وهما هوذة بن على ملك اليمامة الذى طلب أن يكون له شىء من الأمر، فلم يُسْلِمْ وباد ملكه، ومسيلمة الكذاب، وخبره معروف.

وتناولنا فى الفصل الثالث استعراض كتب رسول الله ﷺ التى اصطحبتها معها الوفود العائدة إلى أقوامهم، وفى مقدمتهم ذو المشعار الهمدانى، وطهفة النهدى، ووائل بن حجر الحضرمى، وقطن بن حارثة العليمى الكلبى، ومالك بن مرارة الحميرى، وكانت هذه الكتب ـ طبقا لما أسلفنا القول ـ مشحونة بالغريب من الألفاظ، مليئة بغير المأنوس من الكلمات، جرى ذلك فى كلام رسول الله فى يسر

وانشيال، وفيها أعطاهم الرسول عهودا بالسيادة على أرضهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة واستمسكوا بتكافل الإسلام.

وكان موضوع الباب الثالث من هذا الكتاب « عهود الرسول ومعاهداته » ومثلما أن الرسول هو الصادق الأمين ، فكذلك كانت عهوده متسمة بالصدق ، موسومة بالأمانة، مقرونة بالوفاء نصًّا وروحًا ، شكلا وموضوعا.

إن هذا الباب طويل نسبيا، ومن ثم فقد ضم ستة فصول، كان الفصل الأول عن العهود فى القرآن الكريم وتطبيق رسول الله ﷺ لها، وتناول الفصل الثانى عهود ما قبل الهجرة، وفى مقدمتها عهده ﷺ لتميم الدارى حين سأل الداريون الرسول أرضاً فوهبهم إياها. ومن عهود ما قبل الهجرة بيعة العقبة الأولى التى مثلت أولى مراحل دخول الإسلام إلى يثرب، ثم بيعة العقبة الثانية وكانت فى السنة التالية فى أواسط أيام التشريق، وفيها بايع المسلمون من أهل المدينة رسول الله ﷺ بيعة المناصرة والحفاظ عليه وعلى الدعوة، وهى البيعة البعيدة الأثر فى مسرى الدعوة الإسلامية، وقد كان العباس عم رسول الله شريكا فيها فى جانب الرسول على الرغم من أنه لم يكن بعدُ قد أعلن إسلامه.

وفى الفصل الثالث عرضنا وثيقة الموادعة بين المسلمين واليهود فى المدينة، وقد أملى الرسول هذه الوثيقة بعد خطوات ثلاث تمثلت فى بناء مسجد قباء، ثم بناء مسجده بالمدينة، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم كانت وثيقة الموادعة سالفة الذكر التى تكونت من سبع وأربعين مادة، وبعقد هذه الوثيقة نشأت دولة المدينة التى قامت على أساس المواطنة الإسلامية، وتمثل هذه الوثيقة خطوة أولى وأساسية فى نظام الدولة الحديثة، ومن أهم موادها أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومنها أن من خرج من المدينة فهو فى أمان، ومن قعد فهو فى أمان إلا من ظَلَم وأثِمَ، ومنها المادة الفريدة التى فحواها: « من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم».

وفى شأن هذه المعاهدة نقرر ما قرر غيرنا من المهتمين بدراسة المعاهدات فى الماضى

والحاضر أنه لم يمهَّد لليهود احترام فى التاريخ مثلما مهدت لهم هذه الوثيقة، ولكنهم لا يحفظون عهدا.

والفصل الرابع خصصناه لصلح الحديبية ـ أو معاهدة الحديبية، كما يسميها بعض دارسى السيرة ـ وقد كانت سنة ست من الهجرة ؛ إذ خرج الرسول من المدينة يريد العمرة وفى صحبته ألف وأربعمائة صحابى يريدون تأديتها معه ، وقد حفلت الحديبية بأحداث كثيرة، منها تلك المفاوضات المتلاحقة التى جرت بين الرسول ومشركى قريش، ومنها احتجاز عثمان بن عفان حين قام بتمثيل رسول الله فى محادثات الحديبية داخل مكة، ومنها بيعة الرضوان التى كانت مهرجانا إسلاميا للشهادة والفداء، وفيها بايع المسلمون الرسول على قتال قريش، وفيها حيّا الله المؤمنين، فنزل قوله الكريم :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾

وفيها كان الصلح على أن ينصرف المسلمون عائدين إلى المدينة، ثم يعودوا فى العام القادم، وأن تضع الحرب أوزارها عشر سنين فضلا عن بقية الشروط التى جاءت فى ذلك الفصل.

ثم نزول سورة الفتح التى بشر الله فيها المؤمنين بفتح مكة فى قوله ـ عز وجلَّ ـ :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾

ومن المعجزات الربانية أنه لم يمض على صلح الحديبية عامان حتى فتحت مكة.

وفى الفصل الخامس عرضنا لعهود الرسول ﷺ مع نصارى الشام: مع صاحب أيلة، ومع أهل مقنا. ثم مع نصارى نجران.

كما تناول الفصل السادس عهوده ﷺ لكل من ثقيف واليمن.

والباب الرابع كان موضوعه « خطب الرسول ﷺ » وإنه ليس بغائب عن الخواطر أن رسول الله ﷺ هو سيد الفصاحة وإمام البيان، ومن ثم فإن خطبه هى سيدة الخطب

فصاحة وبيانا وحكمة وتبيانا، ومن هنا تظهر أهمية هذا الباب بشكل خاص.

ولقد قسمنا هذا الباب إلى أربعة فصول، عرضنا فى الفصل الأول للخطابة قبل الإسلام، وأشهر خطباء العرب آنئذ.

والفصل الثانى خصصناه لخطبه ﷺ فى الدعوة إلى الله، والوعظ، والتربية وحسن التوجيه، وحبّ الله، وحب القرآن، وحب الناس، وأول خطبة خطبها فى المدينة، وخطبة أول جمعة فى المدينة.

والفصل الثالث تضمن فتح مكة وخطبته ﷺ وسماحته يوم الفتح، وعددا آخر من خطبه يوم الأحزاب، وخروجه المعلن إلى تبوك، ونماذج من سلوك صحابته، وكثرة الأحداث المواكبة لتلك الغزوة المتميزة.

وأما خطبة الوداع فقد أفردنا لها فصلا مستقلا هو الفصل الرابع، وذلك لأهميتها بلاغة وشريعة، فقد تضمنت هذه الخطبة الوصايا الأخيرة لرسول الله ﷺ وبها استكملت الشريعة أحكامها، ففيها القول الفصل فى تحريم الربا، وحرمة الدماء، وإعلان المساواة بين الناس، وتشريع الدية فى قتل الخطأ شبه العمد، وصلاح الأسرة، والوصية بالنساء مالهن وما عليهن، وحق الزوج وحق الزوجة، والتوريث، وغير ذلك مما حوته خطبة الوداع من أحكام.

والباب الخامس من هذا الكتاب خصصناه لـ « أدعية الرسول وروحانيّاته » وقد جعلناه فى فصلين اثنين، فأما الفصل الأول فموضوعه « الدعاء والتسابيح والابتهالات» ومن الطبيعى أن يكون هذا الفصل مثابة كبرى لروحانيات رسول الله ﷺ فهو كثير التعبد، كثير التسبيح، كثير الدعاء، كثير الصلاة، إنه ﷺ يدعو الله عند الأذان، وقبل الصلاة وبعدها، ويدعو الله فى الصباح والمساء والليل، فلكل وقت دعاء، ثم دعاء القنوت، والاستخارة، ودعاء سجود التلاوة.

وثمت أدعية التعبد والتهجد والتسابيح والابتهال، وهنا أيضا سيد الاستغفار:

« اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما

استطعت، أبوء لك بنعمتك، وأبوء لك بذنبى، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أعوذ بك من شر ما صنعت».

وللرسول ﷺ دعاء التهجد المشهور لدى المتقين:

«اللهم لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن...» إلى آخر هذا الدعاء الربانى الوضىء.

ولرسول الله ﷺ دعاؤه الشهير فى الطائف بعد تعرضه للأذى الشديد من قبيلة ثقيف إثر مطاردة الصبية له بالحجارة: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين...»**.

لقد حفل هذا الفصل بكثير من المدد الروحانى الذى علمنا الرسول إياه حتى نكون ـ نحن العبيد ـ على صلة دائمة برب العزة، تزيدنا ذلاً وقربا إليه، وتزيدنا عزة ومنعة أمام خلقه.

والفصل الثانى من هذا الباب أفردناه للأحاديث القدسية من حيث موضوعاتها والتعريف بها، وكونها نورانية فى مجملها، إشراقية فى وجهتها، ففيها تنزيه الخالق عن الولد والشريك، وفيها التوحيد والتمجيد، والحمد والخشية، وفيها فضل العبادات وثوابها، وفيها ذكر الله، والتوبة، والشهادة، والجهاد، والصبر، وفيها الحشر والنشور، والجنة والنار، وفيها السماح والمغفرة، وفيها شفاعة محمد ﷺ الذى نسأل الله أن نكون أهلا لشفاعته.

وكان لبّ اهتمامنا فى الباب السادس وصايا النبى ﷺ وهى وصايا ونصائح تحمل كل المسلمين إلى مرافىء السعادة وشواطىء الإيمان، وقد جعلنا هذا الباب فى ستة فصول، تناول الفصل الأول وصاياه ﷺ إلى صحابته من قواد ومعلمين، فإن وصاياه إلى قواد السرايا تشكل مدارس فى قيادة الجيوش، وقد أوردنا وصيته لعمرو بن العاص حين أخرجه إلى ذات السلاسل من بلاد قضاعة، كما تمثلنا لوصاياه للصحابة بوصيتين اثنتين، إحداهما لمعاذ، والثانية لأبى الدرداء، تشتركان فى عدد من القضايا، وتكمل

إحداهما الأخرى، ومن الوصايا البارزة تلك التى أوصى بها أبا ذر، وهى تضم بين دفتيها ثلاث عشرة وصية، وقد شرحناها بالتفصيل، كما ضم هذا الفصل عددا آخر من وصاياه ﷺ للنساء، وبخاصة وصيته لفاطمة، ووصيته لأم أنس.

واشتمل الفصل الثالث على وصيتين، إحداهما تعد من أنفس الوصايا وأقصرها؛ لأنها وقعت فى كلمتين اثنتين، وهى وإن كان الذى تلقاها رجلا مغموراً إلا أن قيمتها عند جمهرة المسلمين تمثل جوهر بناء للنفس المسلمة، وهى قوله ﷺ : « **لا تغضب**» . وأما الوصية الثانية فكانت موجهة إلى رجل غير مسلم، انتهت به إلى مدارج الإيمان، فصار صحابيا معروفا، هو أبو جرىّ جابر بن سليمان.

والفصل الرابع جعلناه مختصا بوصاياه ﷺ بطلاب العلم، ولما كان طلبُ العلم فريضةً على كل مسلم طبقا لحديثه الشريف فإننا نتوقع إقبال الجحافل من الشباب على الجلوس فى حلقات العلم يسمعونه من أصحابه، ويتلقونه من رجاله، وفى هذا المجال ردَّدْنَا قول رسول الله ﷺ: « **سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا: مرحبا بوصية رسول الله** » .

وكان موضوع الفصل الخامس هو وصاياه ﷺ إلى الخليفة من بعده، ولجمهرة الصحابة وسائر المسلمين.

ولما كان للأنصار شأنهم فى مسيرة الدعوة ومكانتهم الخاصة عند رسول الله ﷺ فقد كانت وصيته بهم حافلة بذكر أفضالهم، آمرة الصحابة بإكرامهم وتكريمهم، وغَضِّ الطرف عما يبدر من بعضهم من هنات، فكثيرا ما كان ﷺ يقول: « **الأنصار كرشى وعيبتى** » ومن ثم كانت وصية النبى بالأنصار هى آخر وصاياه.

والباب السابع من كتابنا هذا خصصناه للأمثال النبوية السائرة، وقد كانت الحكمة تسرى فى حواشى كلام رسول الله ﷺ حتى إن كلامه ـ باستثناء القليل منه ـ يشكل أمثالا حكيمة سائرة، ومن ثم كان اهتمام جامعى الأمثال كبيرا بأمثال رسول الله ﷺ وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

تناولنا فى الفصل الأول دراسة عن الأمثال والذين ألفوا كتبا فيها، وهم كثيرون، ثم

الأمثال النبوية وحدها، وأن أشهر من ألف فيها مكتفياً بها عن غيرها هو ابن خلاد الرامهرمزى.

ثم جعلنا الفصل الثانى مختصا بموضوعات الأمثال النبوية السائرة، وقد شملت هذه الأمثال كل شىء فى حياة المسلمين من عبادات ومعاملات وحياة اجتماعية وثقافية وتعليمية وعسكرية، وكل ما هو موصول الأسباب بأمور الدين والدنيا.

وأما الفصل الثالث فقد جعلناه لعرض نماذج قدمناها من ثلاثة كتب كانت أكثر عناية من غيرها بأمثال رسول الله ﷺ وهى: الأمثال لأبى عبيد، وأمثال النبى لابن خلاد الرامهرمزى، وجمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى.

والباب الثامن فى كتابنا هذا هو « أسلوب القرآن وأسلوب النبى » وقد جعلناه فى أربعة فصول:

الفصل الأول عنوانه « التسليم الفطرى بأن القرآن كلام الله » هكذا فعل المؤمنون الأولون، وهكذا وقف المشركون أمامه متحيرين بدافع من فطرتهم البلاغية؛ لأن سماعهم القرآن كان يهزّهم هزًّا.

ولقد ضربنا لذلك عددا من الأمثلة، منها: عتبة بن ربيعة حين ناب عن أعيان قريش فى التحدث إلى رسول الله ﷺ كى يثنيه عن الدعوة إلى الله، فأسمعه النبى: ﴿ حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فقال عتبة لقريش: فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمسّ رأسى من أعجازها.

ومثله أيضا الوليد بن المغيرة الذى يسمع السورة نفسها فيقول عن القرآن الكريم ذلك القول الجميل الذى ذاع على ألسنة القرآنيين: إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمغدق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وليس هذا من كلام البشر.

ومثال ذلك أيضا البدوى الذى سمع رجلا يقول: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فخرّ ساجدا يقول: سجدت لفصاحة هذا الكلام.

والفصل الثانى جعلنا عنوانه « القرآن معجزة محمد ﷺ » وفيه عرضنا لوجوه الإعجاز عند عدد من العلماء المعنيين بموضوع إعجاز القرآن الكريم وبخاصة الخطابى والباقلانى وأبى الحسن الماوردى، ثم عرضنا وجوه الإعجاز عند كل واحد من هؤلاء العلماء بشىء من التفصيل، مع الإشارة إلى وجهة نظر الباقلانى فى الفرق بين أسلوب القرآن وكلام الرسول.

وفى الفصل الثالث قدمنا نماذج اختيرت تلقائيا من الكتاب العزيز من سور: فصلت، المؤمنون، الرعد، الكهف، الحج، فاطر، البقرة، آل عمران، النور، الإسراء.

إنها مجرد نُقُول مما وقعت العين عليه دون اختيار سابق أو اعتبار متعمد، كما نقلنا نماذج أخرى من كلام الرسول ﷺ سواء من حكمه أو توجيهاته أو خطبه، فإذا هى فوق كلام الشعراء والخطباء والحكماء والأبيناء، إنها فى إشراقها فوق كلام البشر ودون كلام الله.

والفصل الرابع خصصناه لعرض التناول القرآنى والتناول النبوى لقضايا بعينها عالجها القرآن، وتحدث فيها رسول الله ﷺ مثل: رحمة الله، الجهاد فى سبيل الله، اليتامى والمساكين، مكانة الأنصار ومحبتهم، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما ألمحنا إلى موضوعات الربا، الظلم، طلب العلم، كنز المال، وغير ذلك. فإذا كلام الله معجز بإطلاق، وإذا بكلام الرسول دون كلام الله وفوق كلام جميع الناس.

والباب التاسع خصصناه لموقف رسول الله ﷺ من الشعر، وجعلنا عنوانه « الرسول والشعر » وهى قضية تبدو لأول وهلة وكأنها شائكة تحتاج إلى حرص فى التناول وتردد فى إصدار الأحكام، ذلك أن نصوصا ثلاثة تفرض نفسها على الباحث الذى يعالج تلك القضية : نصان من القرآن الكريم، ونص من الحديث الشريف، فأما النصّان القرآنيان فهما قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١) وقولـه تعـالى:

(١) سورة يسّ، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾(١)

وأما الحديث الشريف فهو قوله ﷺ : « **لأن يمتلىء جوف أحدكم قَيْحًا خير من أن يمتلىء شعرا** » .

لقد ذهب قلة من المفسرين إلى أن هذه النصوص تفيد تحريم الشعر، غير أن الأمر ليس كذلك ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ يعنى أن الله ـ سبحانه ـ لم يمنح محمداً ﷺ ملكة الشعر؛ لأن محمدا أسمى مكانة وأرفع مرتبة من أن يكون شاعرا، وكان ذلك ردا على الذين ظنوا أن محمدا شاعر، وأن القرآن شعر؛ ولذلك كانت بقية الآية ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ وأما الآيات التى جاءت فى سورة الشعراء فإن المقصود بها الشعراء العابثون الذين يقولون الشعر المنحرف الذى ينال من أعراض الناس، وينتقص من مروءاتهم، أما الشعراء المؤمنون الذين يحسنون القول ويجعلون من الشعر أداة للدفاع عن الفضيلة ووسيلة لمكارم الأخلاق، فهؤلاء هم الذين عنتهم الآية الكريمة بالاستثناء؛ لأنهم مؤمنون يعملون الصالحات، ويذكرون الله، ومن ثم يكون الحديث الشريف الذى استقبح حفظ الشعر إنما يقصد ذلك الشعر الذى يتخذ وسيلة للإضرار عوضا عن أن يكون أداة نفع وهداية .

ولقد كان شعراء رسول الله فرسان الكلمة، خاضوا معارك الدعوة والدفاع عنها والذود عن حياضها بأقلامهم وأشعارهم، مثلما خاضها غيرهم من الصحابة بسيوفهم ورماحهم، بل إن من بين شعراء رسول الله من خاض المعارك بشعره وسيفه مثل عبد الله ابن رواحة الذى دافع عن الرسول وذاد عن الدعوة بشعره، مثلما اشترك فيها بسيفه قائدا لجيش المسلمين فى غزوة مؤتة، وظل ممسكا بسيفه إلى آخر قطرة فى دمه، ونال شرف الشهادة فى سبيل الله .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

لقد قام الشعر بمهام عظمى فى صحبة رسول الله ﷺ ومن هنا كان هذا الباب أطول من غيره من أبواب هذا الكتاب؛ إذ تضمن تسعة فصول:

فالفصل الأول تعامل مع قضية « الرسول وموقفه من الشعر » وفيه تناولنا حقيقة أن الرسول لم يقل الشعر، ورفضُهُ للشعر القبيح ،ولكنه كان يستمع إلى الشعر الجاد ويمتدحه ويطرى صاحبه، وهو ﷺ القائل فى أكثر من مناسبة حال استماعه إلى شعر جيد: « **إن من البيان لسحرا** » وقال لخفاف الثقفى حين أنشده شعرا جميلا: « **إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة** » . وحين سمع بيت سويد بن عامر المصطلقى:

لاَ تَـأْمَـنَنَّ وإِنْ أَمْسَـيْتَ فى حَـرَمٍ
إنَّ المَنـايَـا بِكَفَّـىْ كُـلِّ إِنْسَـانِ

قال: « **لو أدركته لأسلم** » .

وكان ﷺ يردد الشعر مع الصحابة يوم أحد لما دميت أصبعه متمثلا قول عبد الله بن رواحة:

هَـلْ أَنـْتِ إِلاَّ إِصْبَـعٌ دَمِيـتِ وفـى سَبِيـلِ اللهِ مِا لَـقِيتِ

وكان عنوان الفصل الثانى « شعراء الصحابة يمدحون الرسول » والشعراء الصحابة من الكثرة بمكان، وكانوا يتسابقون فى مدح رسول الله ﷺ بالقول الجميل والشعر الأخاذ، وفى مقدمتهم حسان بن ثابت، والعباس عم رسول الله ﷺ والعباس بن مرداس السلمى، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومالك بن نمط، وعمرو بن سالم الخزاعى، وأنس بن زنيم، وخفاف بن نضلة الثقفى، وبجير بن زهير بن أبى سلمى.

كان هؤلاء الشعراء وغيرهم يطلبون إليه ﷺ أن يستمع إليهم ينشدون مدائحهم فيه، فكان يستجيب لهم، تكريما لهم، وتشجيعا لقرائحهم.

وكان الفصل الثالث فى « استسقاء النبى ﷺ » لقد كان الشعراء يناشدون الرسول

الاستسقاء بشعرهم، وقدمنا أكثر من مثال فى ذلك، منها استسقاء جده عبد المطلب لقومه حين كان الرسول غلاما، وقد رفعه جده على عاتقه.

وكان الرسول من سماحة النفس وبشاشة الوجه بحيث يطلب من الصحابة أن ينشدوه شعرا قاله عمه أبو طالب ـ وكان أبو طالب شاعرا مجيدا مقلاً ـ وقد استسقى به ﷺ وهو طفل.

وخصصنا الفصل الرابع للرسول وخبر قس بن ساعدة، وكان قس بن ساعدة حكيما فصيحا خطيبا شاعرا يؤمن بالله وبالبعث والقيامة، كان الرسول يسأل الصحابة من منهم يروى أبيات قس:

فى الـــذاهبيـــن الأوليـــن من القـــــرون لنـــا بصـــائر

وأبياتا أخرى له، فيسارع بعض الصحابة إلى إنشادها بين يديه، فيقول ﷺ: «**يرحم الله قسًّا، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده**».

ومثلما خصصنا قس بن ساعدة بفصل وحده، فقد خصصنا كعب بن زهير وخبر إسلامه بفصل مستقل به أيضا هو الفصل الخامس. إن كعبا بعد أن كان لسان سوء فى حق الدعوة وصاحبها ﷺ يثوب إلى رشده بتوجيه من أخيه بجير، فيذهب إلى رسول الله ويدخل إليه فى مسجده عند صلاة الصبح ويعلن توبته، ثم ينشده قصيدته الشهيرة «بانت سعاد» فيحسن الرسول الاستماع إليه، ويخلع عليه بردته، وحين عرّض كعب بالأنصار فى بيت من قصيدته بسبب موقف بعضهم منه طلب إليه الرسول أن يمدحهم، فاستجاب إلى طلب الرسول ﷺ ومدحهم بأبيات رقيقة.

وكان عدد من صحابيات رسول الله شاعرات مجيدات، ومن ثم أفردنا لهن فصلا فى هذا الباب هو الفصل السادس، وجعلنا عنوانه «الصحابيات الشاعرات» اللاتى تأتى فى مقدمتهن الخنساء، وكان الرسول ﷺ يستمع إليها مستحسنا شعرها، ومنهن صفية عمة رسول الله، ونعم امرأة الصحابى شماس بن عثمان، وقد قالت فى رثائه أبياتا من أرق ما قيل فى الرثاء، وقتيلة بنت النضر التى أسمعت رسول الله رثاءها فى أبيها، وكان أسر وقتل يوم بدر، فتأثر رسول الله عند سماعه أبياتها وقال: «**لو بلغنى هذا قبل**